الحلقة الثالثة
من مراجعات في رسالة الخطابي
محمود توفيق

[نقضُ الاستدلالِ علىعدم تميز بلاغة القرآنِ بقلةِ الغريب وشيوع اليسير المتداول]
ذلك استدلالٌ لا يكونُ ممن ذاق طعم البيان البليغ، فليس في عالم أولى الفَهم مَن شرط أن يكون البيان البليغ ذا كلمٍ غرائب ، بل الشَّرطُ عكسُه إذا ما اقتضى الحالُ أن تكون ثَمَّ كلماتٌ غريبة ، فيؤتَى بها على قدر الاقتضاء ، وذلك ما تراه في الكتاب والسّنة، فما من كلمة فيهما وكانت على وفق مقتَضَى الحال متدلوبىأو غريبة . فهي في الحالين ألسياق أنيسٌ بها حفيٌّ .
ما من كلمة في لسان العرب إلا ولها مقامٌ تحسنُ فيه ، كما يقول الجاحظ / وليس هنالك كلمةُ في العربيةِ تقبح لذاتها حيْثُ حلّت ، إنما حسنها وقبحها بحسب اقتضاء المقام وعدم اقتضَائه.
يقُول الخطابي:« ليست الغرابة ممَّا شرطناه في حدود البلاغة ، وإنَّما يكثر وحشيّ الغريب في كلام الأوحاش من النَّاس ، والأجلاف من جفاة العرب ، الذي يذهبون مذهب العنجهية ، ولا يعرفون تقطيع الكلام وتنزيله والتخيّر له ، وليس ذلك معدودًا في النوع الأفضل من أنواعِهِ. وإنَّما المُختارُ منه النَّمطُ الأقصدُ الذي جاء به القرآن ، وهو الَّذي جمع البلاغةَ والفخامةَ إلى العُذوبةِ والسّهولةِ.
وقد يُعدّ من ألفاظ الغريب في نعوت "الطويل" نحو من ستين لفظة أكثرُها بشِعٌ شنِعٌ ، كالعَشَنَّق ، والعَشَنَّط ، والعطنَّط ، والشُوقَب والشَّوذَب والسَّلْهب ، والقُوق ، والقاق ، والطَّوط والطاط.(١) فاصطلح أهل البلاغة على نبذها وترك استعمالها في مرسل الكلام ، واستَثْقَلوا الطويل.
وهذا يدلُّك على أنَّ البلاغة لا تَعْبأُ بالغرابة ولا تعمل بها شيئًا. »[بيان إعجاز القرآن:٣٧]

---

(١) ليست كلمةٌ من هذه تصلح مكان أخرى . لكلٍّ ما يميزُها، فالطول أنواع؛ ولكلِّ نوعٍ كلمتُه، فجهلُنا بذلك خيّل إلينا أنها كلمٌ متساوية، لا يتميَّز بعضها عن بعض .
كما أنه ليس في عالم الإنسان مَن هو نسخةٌ من آخر ، كذلك البيان ليس هنالك كلمةٌ هي هي الكلمةُ الأخرى، العبثيّة في الخلق لا وجود لها، والعبثيّة في عالم الألسن لا وجود لها في أصلِ الوضعِ اللّغوي، وإن تحققتْ في الاستعمالِ من جهالة المستعمل لا من الوضع.

وهذا الذي قرَّره الخطابي هو ما عليه أهل العلم بالبيان من قبله ومن بعده، وتلاميذ مدرسة المفتاح يؤكدون أن الغرابة التي لا تقتضيها الحال من المفسدات فصاحة البيان.

ومن البيِّن أن الحكم بالغرابة على الكلم أمر نسبيّ ، والشَّأن فيما كان غريبا على أهل العلمِ بالعربيةِ، لا على من كان من الدهماء، أو لا ترى أن كثيرًا من كلم الكتاب والسنة هو عند الدهماء من الغرائب .

وعظم ما قيل بغرابته في اللسان العربي مردّه إلى قلة الاستعمال ، وليس من ثقل أو تنافر في الأصوات. كم منْ كلم ثقل النطق بها، فلما كثر تداولها باتت مأنوسة،وواقع الحال شاهد بذلك. (1)

*****

[نقض دعوَى أن في القرآن استعمالَ كلم في غير موضعها الأليق]

في كل عصرٍ تجدُ من أقام نفسَه حكمًا عليمًا محيطًا بلسان العرب ومنهاجها في الإبانة فهما وإفهامًا ، فيقحم نفسه في وطيس المعرَّة ، فيزعم جهالة أنّ في القرآن ما استعمل على غيرِ الوجه الأمثل ، وهذا الصّنف قد كثر في زماننا .

هنالك أمرٌ كان ينبغِي أن يكون حاضرًا في وعْي كلّ من توسوسُ له نفسُه الأمارة، وشيطانه الرّجيم أن يحسِب أو يتوهَّم أن في القرآن خطًا في استعمال العربية إن في كلمة أو فِي تركيبٍ أن يسأل نفسه :

ما بالُ العرب في زمن التّنزيل وهم العرب الأقحاح الأعلم من كلّ مَن جاء بعدهم بلسان العربيةِ فهمًا، وإفهامًا لم يعترضوا على القرآن بمثل ما يعترضُ به الآن عليه من لا

---

(1) يقول الخطابي في كتابه «غريب الحديث» : «والغريبُ من الكلامِ إنّما هو الغامضُ البعيدُ من الفهمِ، كالغريب من الناس ، إنّما هو البعيدُ عن الوطن المنقطع عن الأهل....

ثم إنّ الغريبَ من الكلامِ يقال به على وجهين:

أحدهما: أن يراد به بعيد المعنى غامضه ، لا يتناوله الفهمُ إلاّ بعد معاناة فكر.

والوجهُ الآخر: أن يراد بِهِ كلام من بعدتْ به الدّارُ ، ونأى به المحلُّ من شواذّ قبائل العرب ، فإذا وقعتْ إلينا الكلمةُ من لغاتهم استغربْناها ، وإنما هو كلامُ القوم وبيانُهم .

وعلى هذا ما جاء عن بعضهم ،وقال له قائل : أسألك عن حرفٍ من الغريب ، فقال : هو كلامُ القوم ,إنما الغريبُ أنتَ وأمثالُك من الدّخلاءِ فيه»

(غريب الحديث. تأليف أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ت: ٣٨٨هـ) تحقيق : عبد الكريم إبراهيم العزباوي,نشر مركز البحث العلمي وإحياء التراث- جامعة أم القرى- مكة المكرمة ،ط(١) عام٣٠٤١٠هـ ج:١ص ٧- ٧١.

يُحسن أن يقرأ آياتٍ منه أو أبياتٍ من شعر العربية ، ولا يُحسن أن يتكلم بالعربية بضع دقائق .

ما بالهم لم يعترضوا ،وكان ذلك سبيلًا – إن كان- ليبطلوا ما جاءهم به سيِّدُنا رسولُ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – من أنّ القرآن كلام الله تعالى أوحاه إليه .

من أحضر هذا السؤال في وعيه لا يجرؤ - بتةً - أن يأذَن لشيطانٍ من الجنّ أو الأنس مهما بلغ في عُتوّه أن يوسوس له بأيّ ممَّا أعترضوا به على القرآن. « والحقُ يَدْفعُ تُرُّهاتِ الباطلِ»

وهذا يدلُك دَلالةً بيّنةً تامة محكَمة على أنّ السَّفاهة قد أخذت بخناق أولئك الّذين يتصايحون بهذه الأباطيل والتُّرُّهات .

*****

والخطابي يعرضُ لافتراءاتٍ من هذا القبيل، ويُبين عن الوجه القويم لاستعمال القرآن الكلم في الموضع الذي هو أنس ، ولو أقيم غيره ممَّا يُتوهَم أنّه مثيله لكان غير أنيس ، ولنبا به المحل ، ونبذه السِّياق.

وهو يعرض دعاواهم على القرآن متتابعةً، ثم يجيبُ عنه واحدة واحدة.

وهذا النَّهج : إيراد الاعتراضات جميعًا ، ثُمّ الجواب عنها بعد .

يُسْلَك ذلِك حين يراد أن يخيّل إليك قوة الاعتراضات ، يُخيل إليك أنّ بعضَها يشد بعضَها ، وأنّ الخروج منها فيه عسر، فإذا قام ذلك في صدرك كرّ عليها واحدة واحدة حتى يأتي عليها جميعًا، فيريك أنّك قد غرتك الدَّعاوى، وهالتك الافتراءات، وأخذت منك الأضاليل ، فتدرك الخطأ وتَسعى إلى ألاّ يكون منك مهابة إذا ما توافدت الدعاوى وترادف الأضاليل ، فإن الأباطيل ، وإن تكاثرت، فإن تكاثرها يأكلُ بعضها بعضا.

ذلك نهج في المحاجة، وجندلة الخصيم

وثمّ نهجٌ آخر لم يسلكه هنا الخطابيّ : أن تورد الدَّعوى فتقضها واحدة واحدة، كلَّما جاء بدعوى أزهقتها ، فتدخل المهابة في الخصيم ، فربما كفّ عن الاستمرار في دعاويه .

وهذا نستعمله حين لا نريد أن نجعلَ الخصم يستشعر القوّة في دعاويه. وليس أحدُ النَّهجين أفضلَ من الآخر بل لكلّ سياقه ،فلكل مقتضيه،وهذا من قبيل الشريج الثاني لعلم البلاغة: علم بلاغة الإناعِ والمحاجة والمجادلة.

والشريحجاالأول هُو علم بلاغة التصوير، وهو العلم الذي غلب الأخذ به في معاهد العلم وعلمُ بلاغةِ التَّصوير لازم حضوره في بلاغة التَّصور أيضًا، بيْنا علم بَلاغة الإقناع...ليس بلازم حضوره في كل صُورة من صور بلاغةِ التصوير.(١)

******

زعمَتْ ثُلّة المناهضين القول بأنّ القرآن معجز ببلاغته وإن «العبارات الواقعة في القرآن إنما وقعت في أفصحِ وجوهِ البيان وأحسنها»، أنهم واجدون في القرآن أشياء منها بخلاف هذا الوصف عند أصحاب اللغة وأهل المعرفة بها كقوله : (فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ) [يوسف :١٧] وإنّما يستعمل مثل هذا في فعل السباع خصوصًا "الافتراس" ، يقال: افترسه السَّبُعُ.

هذا هو المختار الفصيح في معناه ، فأمّا "الأكل" فهو عام لا يختص به نوع من الحيوان دون نوع »[بيان إعجاز القرآن:٣٨-٣٩]

اعتراض مخرجه الزَّعم بأن القرآن استعمل كلمة عامة موضع كلمة خاصة حقّها أن تكون، فالأكل عامّ في كل آكل ، والمقام مقام إخبار بفعل آكل خاص : الذئب ، فليس ثم تآنسٌ بين الذئب وفعله.

من البين أن هذا المناوئ قصر نظره على العلاقة بين نوع الفعل ونوع الفاعل ، ولم يلفت إلى أمرين رئيسين:

الأول أن القرآن استعمل عامًا بدلًا من خاصّ. ظاهر النظر وقصيره يحسب عجلًا أنه الأحق ، والأصل أن استعمال العام موضع الخاصّ ضرره يسير، بينا استعمال الخاص موضع العام هو الذي لا يطاق : إنه يفسدُ أصل المعنى

وجه ذلك أن استعمال العامّ موضع الخاصّ متضمن ما يحققه الخاص، لأنَّ فيه الخاصّ وزيادة.

أمّا أستعمال الخاص موضع العام، فهو التقصير الّذي لاَ يُطاق.

"الأكل" فعل يندرج فيه "الافتراس" بينا "الافتراس" لا يندرج فيه" الأكل" .

---

(١) نحن في زماننا هذا أحوج ما نكون إلى علم بلاغة الإقناع والمحاجة والمجادلة، ولا سيما في سياقات الإلحاد والغارة الإعلامية على الإسلام قرآنا وسنة. حقٌ على القائمين على مراسم مناهج التعليم والتثقيف في جامعاتنا أن تعنى بهذا الشريح من علم البلاغة : «علم بلاغة الإقناع والمحاجة والتصوير » عنايتها بالشريح الأول «علم بلاغة التصوير» فكثير من الإشكالات والقضايا إنما يلجأ فيها لما يُسمى بـ«التفاوض» وهذا يُحتاج فيه إلى مهارة الإقناع والمحاجة والمجادلة.

في الأكل معنى الإجهاز على المأكول والانتهاء منه، وذلك لا يتحقق في" الافتراس" . الافتراس يتحقق بمجرد القتل .

<u>والأمر الآخر</u>: أن هذا المناهض لم يلتفت إلى مقصد إخوة يوسف ، أرادوا الاحتياط لأنفسهم، من أن يطالبهم أبوهم بشيءٍ من يوسف بقي لم ينجهز عليه الذئب لوقالوا :"افترسه" ، فاحتاطوا ، فقالوا " أكله" أي أتى عليه، ولم يبق منه شيء يمكن أن نأتي به ، ولكن الله تعالى أفسد عليهم احتياطهم، فجاءُوا بقميصه غير ممزق . فعجيبٌ أن يأكله الذئب ويُنهي عليه جميعه ويدع ثوبه سليما . أيّ ذئبٍ هذا ؟!!!!! ([1])

ينقضُ الخطابي هذا الاعتراض الغفول بأنّ:« القول في وجود ألفاظ القرآن وبلاغتها على النعت الذي ،وصفناه صحيح لا ينكره إلا جاهل أو معاند ، وليس الأمر في معاني هذه الآي على ما تأولوه ولا المراد في أكثرها على ما ظنوه وتوهموه.

فأما قوله تعالى: {فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ} [يوسف: ١٧] فإنَّ "الافتراس" معناه في فعل السبع القتل فحسب ، وأصل الفَرْسِ دَقُّ العنق ، والقوم إنَّما ادَّعوا على الذئب أنَّه أكله أكلاً وأتى على جميع أجزائه وأعضائه ، فلم يترك مفصلًا ولا عظماً ، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياه بأثر باق منه يشهد بصحة ما ذكروه ، فادعوا فيه "الأكل" ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة ، والفرس لا يُعطي تمام هذا المعنى ، لم يصحَ على هذا أن يعبر عنه إلاّ بالأكل ، على أن لفظ "الأكل" شائع الاستعمال في الذّئب وغيره من السباع.

وحكى ابن السكيت في ألفاظ العرب قولهم : أكل الذئب الشاة فما ترك منها تامورا .

وقال بعض شعرائهم:

فَتًى لَيْس لابنِ العم كالذِّئبِ إنْ رَأى * بِصاحِبِهِ يَومًا دَمًا فَهُو آكلُه([2])

---

[1] عجيبٌ أنهم فعلوا ذلك بأخيهم ،وكذبوا على أبيهم ،وهم يعلمون أن أباهم نبيٌ يوحى إليه، وهذا وحده كفيل بأن يجعل المرء لا يقدم على ما يُغضبُ الله تعالى وعجيبٌ أيضا أن سيدنا يعقوب ﷺ لم يأتنا الخبر أنه طلب من ربه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – أن يكشف له الحقيقة في شأن يوسف ﷺ ، أصرفه ربه تعالى عن ذلك ليقضي قدره ؟ لعلَّه.

[2] البيت من قصيدة لزَيْنَب بنت الطَّثرية ترثي وقبله :

إذا جد عِنْدَ الْجِد أرضاك جده * وَذُو بَاطِل إن شِئْتَ أرضاك باطله

إذا الْقَوْم أموا بَيْته فَهُوَ عَامِد * لأحسن مَا ظنُّوا بِهِ فَهُوَ فَاعِله

إِذا نزل الأضياف كَانَ عذوراً * على الْحَيّ حَتَّى تستقل مراجله

وَقد كَانَ يروى المشرفي بكفه * ويبلغ أقْصَى حجرَة الْحَيّ نائله

فَتى لَيْسَ لِابْنِ الْعم كالذئب إِن رأى * بِصَاحِبِهِ يَوْمًا دَمًا فَهُوَ آكله

وقال آخر:

أبا خراشة أمَّا أنْت ذا نَفرٍ * فإنَّ قومِي لَم تأكُلهم الضَّبع([1])

وفي حديث عتَبة بن أبي لهب أنه لما دعا علَيْهِ [النَّبيّ] عليه السلام: فقال اللهم سلط عليه كلبا من كلابك ، فخرج في تَجْرٍ إلى الشَّام ، فنزل في بعض المنازل جاء الأسد ، وأطاف بهم ، فجعل عتَبة يقول: "أكلني السبع " فلما كان في بعض الليل علا عَلَيْه ففدغ رأسه. ([2])

وقد يتوسع في ذلك حتى يجعل العقر أكلا وكذلك اللدغ واللسع.

أخبرنا أبو عمر قال: أخبرنا أبو العباس عن ابن الأعرابي عن أبي مكارم قال: مررت بمنهال وعلى شفيره صنبور بيده شوشب فقلت لأمه: أدركي القامة لا تأكله الهامة.

قال أبو العباس: "الشوشب" :العقرب والقامة : الصبي الصغير. ([3])

وهذا البيت الأخير يكاد لا تلقى في قومك من هو متخلق به.

([1]) البيت من قصيدة لسيدنا الصحابي الجليل عباس بن مرداس - رضيَ اللهُ عَنْهُ – يحثه على السلم ويعدد

السلم تأخذُ منها ما رضيت به * والحربُ يكفيك من أنفاسها جرع "

الضبع" : حيوان مفترس،وتسمى به السنة المجدبة كما نص عليه الخليل في "العين" وهو يذكر هذا البيت أي لم يأكلهم الجدبُ والفقرُ.

يقول ابن فارس في «مقاييس اللغة»" « (ضبع) الضاد والباء والعين أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معانٍ ثلاثة:

أحدها جنسٌ من الحيوان

والآخر عضو من أعضاء الإنسان

والثالث صفة من صفة النُّوق.

فالأول الضَّبُع، وهي معروفة، والذكر ضِبْعان، وفي الحديث: "فإذا هو بضِبْعانٍ أمْدَر "، ثم يستعار ذلك فتُشبَّه السنةُ المجدبة به، فيقال لها الضَّبُع. وجاء رجلٌ فقال: "يا رسول الله، أكلتْنا الضَّبُع"، أراد السَّنَةَ التي تسميها العرب الضَّبُع؛ كأنَّها تأكلهم كما تأكل الضَّبُع. قال:

أبا خُراشةَ أمّا أنتَ ذا نفرٍ *** فإنّ قومي لم تأكُلْهم الضَّبُع »

([2]) روى الحاكم في المستدرك بسند صحيح عَنْ أَبِي نَوْفَلِ بْنِ أَبِي عَقْرَبٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ لَهَبُ بْنُ أَبِي لَهَبٍ يَسُبُّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبَكَ» فَخَرَجَ فِي قَافِلَةٍ يُرِيدُ الشَّامَ فَنَزَلَ مَنْزِلًا، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ دَعْوَةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا لَهُ: كَلَّا، فَحَطُّوا مَتَاعَهُمْ حَوْلَهُ وَقَعَدُوا يَحْرُسُونَهُ فَجَاءَ الْأَسَدُ فَانْتَزَعَهُ فَذَهَبَ بِهِ «صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ»

وفيه لفتة على أن العرب من معهودها استعمال الأكل مع السباع ، بل العرب قديما وحديثا يستعملون فعل الأكل مرادا به القتل والاتيان على الشيء كاملا والله تعالى يقول [إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] [البقرة:١٧٤]

ويقول:[الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ][البقرة:٢٧٥]

ويقول : [إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا][النساء:١٠]

([3]) الصنبور مخرج الماء من الحوض

وحكي أيضا عن بعض الأعراب :"أكلوني البراغيث "([1]) فجعل قرص البرغوث أكلا.
ومثل هذا الكلام كثير. » [بيان إعجاز القرآن:٤٠-٤٢]

***

من بعد أن أبان الخطابي عن المقتضي استعمال كلمة(أكل) مكان(افترس) فقضى حق النظر البلاغي، نظر نظرة أخرة إلى ما هو المتداول في لسان العرب، فدل على أن من نهجهم إسناد الأكل إلى الحيوان المفترس وإلى غيره ،فعلي أيّ ليس لما اعترض به وجه، سوى الدلالة على جهالة المعترضِ فكان حتفه في اعتراضه (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَارَيْبَ فِيهِ هدًى للمتقين) (البقرة)
(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا.) [النساء:٨٢]
(وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)[فصلت] إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[الحجر:٩]

******

نقض الاعتراض على قول - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ) (يوسف:٦٥) بأنّ الكيل ليس بمعهودٍ أن يوصف بأنه يسير إلا على وجه أن يعني به أنّه يسير العدد والكمية.
فنقض اعتراضهم بأن الكيل هنا يراد به المكيل، فمن شأن العرب أنها تضع المصادر موضع الأسماء لما فيها منْ معناه ، بل في المصادر ما في الأسماء وزيادة ، فهم يقولون : هذا درهم ضربُ الأمير أي مضروبه،وهذا ثوبٌ نسج اليمن أي نسيجه
والمعنى أنا نزداد من الميرة المكيلة إذا صَحِبَنا أخونا حمل بعير؛ أيْ يتيسرِ لنا بمصاحبة أخينا تحصيل كيل بعير
واليسير شائع الاستعمال فيما يسهل من الأمور كالعسير فيما يتعذر منها
ولذلك قيل يُسِّرَ الرّجل إذا نتجت مواشيه وكثر أولادها. قال الشاعر:
يعد الفتى من نفسه كل ليلة * أصاب غناها من صديق مُيَسر
(٤٢) وقال آخر:

---

[1] إيطلق النحاة على لغة طيء: «أكلوني البراغيث» وهي إلحاق واو الجماعة مع أسناد الفعل إلى الظاهر ، كما جاءوا التلاميذ ، وما رواه الشيخان بسندهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ « يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ ، وَيَجْتَمِعُونَ فِى صَلاَةِ الْعَصْرِ وَصَلاَةِ الْفَجْرِ ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهْوَ أَعْلَمُ بِكُمْ فَيَقُولُ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِى فَيَقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ» .

هم سيِّدانا يزعمان وإنما * يسوداننا أن يَسَّرتْ غنماهما([1])

وقد قيل في ذلك: كيل يسير أي سريع لا حبس فيه ، وذلك أن القوم كانوا يحبسون على الباب وكان يوسف يقدمهم على غيرهم؛

وقد قيل إن معنى الكيل هنا السعر.

أخبرني أبو عمر عن أبي العباس قال: والكيل بمعنى السعر ، كيف الكيل عندكم؟ أي: كيف السعر؟

وقد أنشدنا عمرو ابن أبي عمرو الشيباني عن أبيه:

فَإن يَكُ فِي كَيْلِ اليَمامَةَ عُسْرةً ** فَمَا كَيْلُ مَيَا فارِقِينَ بأَعْسرا »([2]) [بيان إعجاز القرآن: ٤٢- ٤٣]

تراه يحيلُ على معهود العربِ في الإبانةِ ،وما في هذا التركيب «كيل يسير» من اتساع في المعنى، لاحتمال تأويله وجوهًا عدة، كل وجهٍ منها سائغ .

وهذا مسلك من مسالك اتساع المعنى في فؤاد المستبصر، فالتركيب الذي ليس له إلا وجه واحد وإن كان هذا من إحكام الدلالة ، فإنه لا يصلح في كل موضع

. يصلح في الأحكام العقدية حيث الدلالة القطعية،وبعض الأحكام الشرعية ، لكن بعض الأحكام الشرعية،وما هو من قبيل الإحسان يصلح معه اتساع الدلالة بأن بكون التركيب محتملًا وجوهًا عدة كلّ وجهٍ فيها سائغ، فلا تتقاطع،ولا تتدابر.

---

[1] يقول ابن منظور في لسان العرب : مادة(يسر)

قال أبو أُسَيْدَةَ الدُّبَيْرِيّ

إنَّ لنا شَيْخَيْنِ لا يَنْفَعانِنا غَنِيَّيْن لا يُجْدِي علينا غِناهما

هما سَيِّدانا يَزْعُمانِ وإنما يَسُودانِنا أَنْ يَسَّرَتْ غَنَماهما

أي ليس فيهما من السيادة إلا كونهما قد يَسَّرَتْ غنماهما والسُّودَدُ يوجب البذل والعطاء والحراسة والحماية وحسن التدبير والحلم وليس عندهما من ذلك شيء.

ويقول الخطابي في "غريب الحديث":

" ويَسَّرَ غَنَمُهُ إذا كَثُرَتْ أَلبانُها قال الشاعر:

هُما سَيِّدانا يَزْعُمانِ وإنَّما ** يَسُودانِنا أَنْ يَسَّرَتْ غَنَماهُما

[2] قوله «ميا فارقين» تكون من كلمتين «ميّا» و«فارقين» الأولى اسم بنت "أُدِّ بن أُدَد" و« فارقين » مدينةٌ بالجزيرة من ديار بكر بالعراق ، بنتها ميّا بنتُ أُدّ بن أُدد ، فنسبت إليها

وهذا التركيب «كيل يسير» من البلاغة العلية،وليس مما يعترض به، مما يدل على أن من اعترض به هو من الغفلة على أقل تقديرٍ حيثُ توهم ما هو عَلِيّ القدر في الإبانة مما يعترَضُ به. وليس أضل ممن يرى الجمال قبحًا.

*****

ومما اعترض به على القرآن قوله تعالى { وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ } [ص: ٧]

ووجه الاعتراض أن « المشي في هذا ليس بأبلغ الكلام ، ولو قيل بدل ذلك أن امضوا وانطلقوا لكان أبلغ وأحسن. »[بيان إعجاز القرآن:٣٨]

فنقض الخطابي اعتراضهم ببيان أننظم تالآية يحتمل وجهين كلاهما سائغٌ

الأول أن مقصد الكافرين من دعوتهم أشياعهم الاستمرار على العادة الجارية ولزوم السجية المعهودة في غير انزعاج منهم ولا انتقال عن الأمر الأول

وذلك أشبه بالثبات والصبر المأمور به في قوله: (واصبِرُوا علَى آلهتكم} والمعنى كأنهم قالوا: امشوا على هينتكم وإلى مهوَى أموركم ، ولا تعرجوا على قوله ، ولا تبالوا به. وفي قوله: امضوا وانطلقوا زيادة انزعاج ليس في قوله امشوا ، والقوم لم يقصدوا ذلك ولم يريدوه

والوجه الآخر أن المشي هنا لا يراد به المعنى المعهود عندنا بل المراد به التوفر في العدد والاجتماع للنصرة دون المشي الذي هو نقل » [بيان إعجاز القرآن ٤٣]

هذان التوجيهانِ لا يهدفان إلى بيان صحة الاستعمال لغة، بل إلى بيان رونقِ بلاغة الإعراب بقوله«امشوا» ولو أن المعارضَ أدرك أيًا من التوجهين لكان في منعة من أن يعترضِ ، فقلة علمه وخبرته بالعربية، واستعمالاتها حملته على أن يلقِ بنفسِه في ألقاها فيه .

وكان حقًا عليه حين وسوس له شيطانه أن يعترضَ بما اعترض أن يسائله : ولم لم يعارض العرب الأول بهذا وهم أهل اللسان،والأعلم بدقائقه ؟

أَوَ صرفوا عن الاعتراض على ما هو غير قويم كما صرفوا عن أن يكولوا مثله في زعمكم .

هذا التساؤل لو استحضره كلُّ من تسوِّل له نفسه قديمًا وحديثًا أن يعترض بمثّل هذا أو يوسوس له به شيطانُه لواستحضره لما أقدم على الاعتراضِ بتّةً.
وإذا ماكان أهل الحكمة على أن أهل مكة أدرى بشعابها، فالعرب الأوائل زمن البعثة هم الأعلم بلسان العربية،وما يستقيم فيها وما لا يستقيم،ولو توهموا أن فيه شيئًا مما يعرض به، لما سكتوا، ولكنهم الأعلم بأنه خلاء مما يُمكن أن يتوهم ذو نهًى أنه خطأ أو أنَّ غيرَه هو الأعلى والأولى.

******

نقض الاعتراض باستعمال ما يكون لما هو حسيّ(الأعيان) فيما هو معنوي، كقوله: ({هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَه}[الحاقة:٢٩] وإنما يستعمل لفظ الهلاك في الأعيان والأشخاص كقوله: هلك زيد ، وهلك مال عمرو ونحوهما ، فأمّا الأمور التي هي معان وليست بأعيان ولا أشخاص فلا يكادون يستعملونه فيها.
ولو قال قائل: هلك عن فلان علمه أو هلك جاهه على معنى ذهب علمه وجاهه لكان مستقبحًا غير مستحسن.[بيان أعجاز القرآن: ٣٨]
اعتراض مبعثه أن القرآن استعمل كلمةً في غير موضوعها المعهود في لسان العربية، فالهلاك في لسانهم إنما يقع على ما كان محسًا، لا ما كان معنويًا يدرك بالعقل لا بالحسّ. كذلك يهرفون ويشغبون .
وبقليلٍ من المعرفة بمعهود العربِ نجد أنهم كثيرًا ما يعاملون ما هو معنوي معاملة ما هو حسيّ، بل إن هذا أكثر تداولا عندهم من استعمال المحسوس استعمال المعقول. ذلك أن إدراك المحسّ أسرع وأقوى من ادرك المعنوي عند كثير من الناس.
الاعتراض آتٍ من العجلة ، والتخلي عن الريثِ والاستقراء ، فكأن الرغبة في المُشاغبة بأي شيءٍ حملتهم على أن يلقوا بأنفسهم فيما لا يليق بعاقل أن يفعل.
والخطابي يصفهم بأنهم لم يزيدوا باعتراضهم هذا على أن عابوا أفصَح الكلامِ وأبلَغه ، وهذا وصم لهم بالضلالةِ والحمق.
فالذي لا يبصر الجميل فيراه قبيحًا ، هو أحق أن يستبصر حاله ، فيعالجها لا أن يخضَع لما توسوس له به نفسُه وشيطانُه.

يذهب الخطابي بصيرًا إلى أنه « قد تكون الاستعارة في بعض المواضع أبلغ من الحقيقة »

هذه قاعدة كلية مؤسسة على أنّه ليس ثَم ما هو جميلٌ بليغ لذاته في كلّ مساق، فالحسن والجمالُ أمور نسبيةٌ سياقية ، فما يقتضيه المقام هو الأولى والأعلى ، فالاعتداد بالاقتضاء ومطابقته .

وعلى هذا قد يقتضى الحالُ الإعرابَ بالاستعارة دون الحقيقة، فكون الاستعارةُ في هذا المساق أبلغ أي أكثر مطابقة ، أمّا أن الاستعارة أبلغ من الحقيقة أي أكثر مبالغة، فهو أمرٌ ثابتٌ لها، لكنه ليس محقّقا لها بلاغتها في كلّ موضع، فهي أكثر مبالغة ، والمقام لا يقتضى مبالغة ، فلا تكونُ الاستعارة هنا بليغة ، وإن فاضت بالمبالغة.

ويضرب الخطابي أمثلة لما جاءت في الاستعارة أبلغ . يقُول الحقُّ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :(وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ)[يس: ٣٧]

قوله «نسلخ» حقيقته "نخرج" ولكن قوله «نسلخ» أدلّ على المراد ، فالمراد الإزالة على تمامها فلما كان إزالة ضوء النهار عن ظلمة الليل آية كونية لها ما يشبهها فيما يمارسونه من سلخ جلد الذبيح عن جسده جعل إزالة ضوء النهار عن ظلمة الليل مصورة بإزالة الجلد عن الجسم.

وفي السلخ معنى ليس في الإخراج، الإخراج قد يكون دفعة، وفي السلخ معنى التتابع ،وهو المتحقق في انكشاف الليل وإظلام الكون على ما تراه عنين كل ليلة.([1])

والآية جعلت ضياء النهار غطاء لظلمة الليل، ذلك أن الأصل أن الظلمة كانت أولًا ثم يكون النهار ،ولذا كانت بداية اليوم بعد غروب الشمسِ ،وليس بطلوع الفجر ، فالليل سابق النهار هذا هو الأصل الكونيّ ـوما كاء في قزله تعالى:(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)(الزمر:٥) فهذا له غرض آخر. يحسن بك طالب علم

---

[1] يذهب ابو هلال العسكري (ت:٣٩٥هـ) عصري الخطابي في كتابه النفيع المتبع" كتاب الصناعتين:إلى أن « هذا الوصف إنما هو على ما يتلوح «١» للعين لا على حقيقة المعنى؛ لأن الليل والنهار اسمان يقعان على هذا الجو عند إظلامه لغروب الشمس وإضاءته لطلوعها، وليسا على الحقيقة شيئين يسلخ أحدهما من الآخر، إلا أنهما في رأى العين كأنهما ذلك، والسلخ يكون في الشيء الملتحم بعضه ببعض، فلما كانت هوادى الصبح عند طلوعه كالملتحمة بأعجاز الليل أجرى عليها اسم السلخ؛ فكان أفصح من قوله: يخرج؛ لأن السلخ أدل على الالتحام المتوهم فيهما من الإخراج.»

أن تراجع فقه الآيات الكونية في مجلة(الأعجاز) التي تصدر عن رابطة العالم الإسلامي بجدة- السعودية،وهي متوفرة في صورة(pdf) ([1])

مثل أيضا بقوله تعالى : (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ) [الحجر: ٩٤] « وهو أبلغ من قوله: فاعمل بما تؤمر وإن كان هو الحقيقة ، والصدع مستعار ، وإنما يكون ذلك في الزجاج ونحوه من فِلِزّ الأرض ، ومعناه المبالغة فيما أمر به حتى يؤثر في النفوس والقلوب تأثير الصدع في الزجاج ونحوه »

الاستعارة هنا أفادتْ أنه لا يكفي أن يجري الأمر على أي نحوٍ، بل لا بدّ من إجرائه على نحو يكون بالغًا في تأثيره ، فقيمة الأعمال ليس بإيجادها فحسب ، بل بتأثيرها ، فجاء الأمر بالعمل بما يؤمر به على نحو يكون بالغًا يشبه ما يكون في الزجاج لا يخفى على ناظرٍ، فضلًا عن ديمومية الأثر .

وعلى هذا يكون قوله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى {هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَه} على سبيل الاستعارة، أي ذهب عني وغادرني، فلم يبق لي منه شيءٌ قريبٌ أو بعيدٌ ، ولو قال ذهب عني سلطنيه لفهم أنه قد يعود إليه - لأنه فارقه ، أما الهلاك فهذا يعني الفناء بالكلية مما يترتبُ عليه اليقين بأنه لن يعود. وقد قيل إن معنى السلطان ها هنا الحجة والبرهان

*****

[نقض الاعتراض بزيادة حروف المعاني]

مما يُعترض به مجيء حروف المعاني زائدة يمكن الاستغناء عنها كما في قول الله تعالى(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)[العاديات: ٨]

يقال:«أنت لا تسمعُ فصيحًا يقول: أنا لحب الخيرِ شديد- وإنما وجه الكلامِ وصِحتَه أن يُقال أنا شديد لحب زيد وللمال،ونحوه »

هذا الاعتراض مخرجه أنه لا يستقيم أن تكون اللام في(لشديد) بل يكتفي باللام في (لحب) وتكون متعلقة بشديد، ولذا جاز على زعمه أن يقال: أنا شديد لحبُّ الخير.

وهذ جاءه من الغفلة عن معنى (شديد) وظن أنها شدة الحب، وقد غفل ، فشديد هنا بمعنى " بخيل" واللام في (لحب) لام العلة أي وإنه لبخيل من أجل حبه الخير أي المال.

---

[1] راجع إن شئت كتاب:الإعجاز العلمي للقرآن الكريم بين الآيات القرآنية والنظريات العلمية، تأليف:أحمد المرسي حسين الجوهر.. نشر مكتبة الإيمان في المنصورة(ط/١ عام ١٤٢١هـ) ص: ١٠٤-١٠٥

يقول الخطابي :« وأما قوله سبحانه: {وإِنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ} وأنَّ "الشَّدِيدَ" معناه هاهنا "البخيل" ، ويقال: رجلٌ شديد ومتشدِّد أي بخيل. قال طرفة :

أرَى المَوتَ يَعتامُ النّفوسَ وَيَصْطَفِي ⁂ عقيلَةَ مالِ الفاحِشِ المُتَشَدِّدِ

و"اللام" في قوله: { لِحُبِّ الخير} بمعنى لأجل حبِّ الخير وهو المال لبخيل »

والخطابي يستشهد ببيت لطرفة على استعماله المتشدد بمعنى البخيل، وكأنَّ بخله هذا يقوى شيئًا فشيئًا فلا أمل في أن يبرأ منه ،فكلما زاد ماله، زاد بخله.

وفي الإعراب عن المال بالخير مراعاة لرؤية الإنسان للمال ، فيراه هو الخير الذي يجب أن يحوطه ويحرص عليه.

وهذا ضلالٌ في الرؤية، فإن خيرية المال ليست في إمساكه بل في أنفاقه فيما يصح إنفاقه فيه. والإنفاق هوخروج حبك له من نفسك منقبل خروجه من كيسك، فأنت تراله في يد المحتاج أنفع لك منه في يدك، فهو يقع في يد الله تعالى المنعم به عليك قبل وقوعه في يد الفقير،ولذا كانت أم المؤمنين عائشةإذا تصدقت بدرهم،وما فوقه وكان عندها طيب مسته به، قبل أن تضعه في يد الفقر، لأنها تراه يد الله تعالى ،والله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا مطيبًا. ذلك هو الفقه الإحساني للتصدق ، وما سميت الصدقة صدقة إلا من أنها شاهد صدق على كمال إيمان المتصدق.

روى مسلم في كتاب «الزهد والقائق» من صحيحه بسنده عَنْ مُطَرِّفٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ أَتَيْتُ النَّبِىَّ -صلى الله عليه وسلم- وَهُوَ يَقْرَأُ (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ) قَالَ « يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِى مَالِى - قَالَ - وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ ».

*****

ومن باب الاعتراض باستعمال فعل في غير موضعه : استعمال كلمة (فَعَل) موضع كلمة (زكّى) يَقُولُ الله - تعالى:(وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فاعِلُونَ)[المؤمنون:٤]

يقُال:« لا يقول أحدٌ من الناسِ فعل زيد الزَّكاة ، وإنما يقال زكى الرجل ماله، وأدّى وكاة ماله ، أو نحوذلك من الكلام»

ينقد الخطابي هذا الاعتراض بما يهدي إلى أنَّ المعترض لم يلتفت إلى السياق الذي وردت فيه الآية :

الآية وردت في صفة ثلة صار الإيمان صفة قائمة فيهم، فهم به معروفون في أقوامهم الذين آمنوا، وهذا يستوجب ألا يوصفوا بأنهم يزكون، فكل مسلم أيا كان مقامه في مراتب الإيمان هو يزكي، ولكن القلة التي الحديث عنها أضحت الزكاة فعلًا لازمًا لهم، يمارسونه ديمَة، فهو من أفعاله التي لا يتخلون عنها.([1])

الآية تصور عظيم حضور الزكاة في ممارساتهم وهذا المعنى لا يعرب عنه قولنا: زكى محمد ماله، أو أدى زكاة ماله ؛ لأن هذا يمكن أن يكون مرة واحدة في كل عام، والآية تصور التزكية فعلًا ديمةً ظاهرًا فيهم،

وأمر آخر لو نظر إلى كلمة «الزكاة» في الآية على معنى " التزكية" لفهم أنهم يفعلون كلّ ما هو مفضٍ إلى تزكيتهم ، فكلُّ أفعالهم تثمر تطهيرًا من الأحوال السُّوءَى، ونماء في الأحوال الحسنى، وهذا ما يلق بمقام منيوصف بأنه من«المؤمنين» المفلحون.

وأمر ثالثٌ يمكن أن تجعل «اللام» في قوله «للزكاة» لام التعليل أي من أجل الزكاة هم فاعلون ما يحقق لهم هذه القربي، وهذا يصور لك أولئك أنهم يعملون ويجدون في العمل من أجل أن يكتسبوا مالا طيبًا يتصدقون به ،فيزكون أنفسهم، وأنفس من يتصدقون عليهم، فثم ثلة من الأخيار تجتهد في السعي لا محبة للمال لذاته، بل ليتوفر لديهم ما يتصدقون به على من لم يُحسن العمال، ومخرج هذا عندهم هدي سيّدنا رسُول الله - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبه وسَلّم .

روى الشيخان بسنديهما عَنْ أَبِى ذَرٍّ - رضى الله عنه - قَالَ سَأَلْتُ النَّبِىَّ - صلى الله عليه وسلم - أَىُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ، قَالَ « إِيمَانٌ بِاللَّهِ ، وَجِهَادٌ فِى سَبِيلِهِ » . قُلْتُ فَأَىُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ قَالَ « أَغْلاَهَا ثَمَنًا ، وَأَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا » . قُلْتُ فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ . قَالَ « تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لأَخْرَقَ » . قَالَ فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ . قَالَ « تَدَعُ النَّاسَ مِنَ الشَّرِّ ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِهَا عَلَى نَفْسِكَ » . (متفق عليه) ([2])

وهذا أليق بشأن من يقول الله تعالى فيهم: (أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)

---

[1] القرآن منهاج [illegible] في مقامات الطاعة

[illegible]

[illegible]

[2] [illegible]

[illegible]

يقول الخطابي: «هذه العبارات لا تستوي في مراد هذه الآية ، وإنما تفيد حصول الاسم فقط ، ولا تزيد على أكثر من الإخبار عن أدائها فحسب .

ومعنى الكلام ومراده المبالغة في أدائها والمواظبة عليه حتى يكون ذلك صفة لازمة لهم ، فيصير أداء الزكاة فعلاً لهم مضافاً إليهم يعرفون به ، فهم له فاعلون.

وهذا المعنى لا يستفاد على الكمال إلا بهذه العبارة ، فهي إذنْ أولى العبارات وأبلغها في هذا المعنى .

وقد قيل إن معنى الزَّكاة هنا العمل الصالح الزاكي ، يريد - والله أعلم - والذين هم للأعمال الصَّالحة والأفعال الزاكية فاعلون. »[بيان إعجاز القرآن: ٤٥]

وأمَّا قوله - عزَّ وجل: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا}[مريم:٩٦]إنكارهم قول من يقول جعلت لفلان وداً بمعنى وددته فإنهم قد غلطوا في تأويل هذا الكلام ، وذهبوا عن المراد فيه ، وإنما المعنى أن الله سيجعل لهم في قلوب المؤمنين ، أي يخلق لهم في صدور المؤمنين مودة ، ويغرس لهم فيها محبة ، كقوله عز وجل: **{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ}[النحل:٧٢]** أي خلق.(1)

******

ومن هذا الباب اعتراضهم بزيادة " اللام " في قول الله تعالى (قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ)[النمل:٧٢] فالأصل عند المعترض إنما ردفه يردفه من غير إدخال اللام.(بيان إعجاز القرآن: ٣٩)

هذا الاعتراض كما يبدو لك قائم على أنّ حرف «اللام»هنا ليس له أثر في المعنى ، فحقه ألا يكون.

وهذا يوحى بأن المعترض يرى في نفسه أنه محيط بما قالت العربُ ،ولذلك يدّعي أنه لا يوجد فيما أثر عنهم القول بردف لكم. وهذه دَعوى عريضة، فعدم وجود المدعي ليس دليلًا على أنه لم يُوجد.

، فرق كبيرٌ بين قولنا "لم أجد"،وبين قولنا: "لا يقال" أو"لا يوجد"

(1) في الذكر الحكيم جاء [illegible] بخلق لكم، يقول الله تعالى {ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون}[الروم:٢١]

هذه دَعوَى عريضة لا طاقة لعربي قُح أن يقول إنه لا يوجد في لغة العرب كذا، وإنَّما الحيطة العلمية أن تقول: "لا أجد" تنسب عدمَ الوجود إلى نفسك ، لا إلى اللغةِ ، فلسان العرب من أكثر الألسن ألفاظًا ،وأوسعها مذهبًا، ولا يحيط بِها إلّا نبيٌّ ، كما يقولُ الإمامُ الشّافِعِيُّ في كتابِه «الرسَالة»

الآية جاءت في الرد على من يستعجلون يوم العقاب لهم أو يوم القيامة إيمانًا منهم بان ذلك لا يكون:

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (النمل:٧١)

هم يستفهمون تهكمًا ،ولذا قالوا« إن كنتم صادقين »

والقرآن يبين أن هذا من دأبهم، بقوله «يقولون» فيرد عليهم آمرًا سيّدنا رسُول الله - صلَّى اللهُ عَليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِه وسَلَّم – أن يقول لهم أن ذلك على رجاء أن يحل بهم قريبًا، فضمّن قوله «ردف» معنى «اقترب» وهو يعدى بحرف، فقوله «ردف »جامع لمعنيين: القرب والاتباع

ولو قال (ردفكم) لتضمن معنى واحدًا: "تبع"

و"التضمين" من مسالك اتساع المعنى ،وثرائه، فجمع بين معنى "قرب" و"تبع" ، فهو اتباع قريبٌ .

فـ"اللام" هنا ليست مزيدة زيادةً خلاء من المعنى، بل زائدة في المعنى بالتّضمين ، والتضمين لا يكون إلى جمعًا بين معنيين لا يكون لهما لفظ واحد ، فيُدل على أحدهما بلفظ المتعلَّق (الفعل) والآخر بقرينة الحرف المتعلِّق(بالكسر) بالفعل، فـ"اللام" هنا ليست للتعدية ذلك أن الفعل (ردف) يتعدي بنفسه، فالفائدة ليست لفظية، بل هي معنوية، وهذا مسلك من مسالك«إيجاز القصر»

والشّأن فيما يقول اللغويون إنه «حرف زائد» إنما هو مزيدٌ من وجه أي مزيد على صورة أصل المعنى ،و"زائد" في المعنى ، فمعنى قولهم "زائد" أن رفعه لا يؤثر في أصلِ المعنى، ولكن رفعه يؤثر في المعنى البلاغي البياني السياقيّ ،وهو المعنى المهمومُ بِه العقلُ البلاغي.

والغالب فيما قال اللغويون إنه حرف " زائد" أنه يأتي للتوكيد أو التضمين أي إن ما يأتِي لِتمكين المعنى في نفس السّامع أو لا تساع المعنى، وكلا الأمرين ممّا يقتضيه

المقام، وهو زيادة في المعنى السياقي. فالقول بالزيادة الجرداء من الإفادة قول لا يليق بأي بيانٍ بليغ.([1])

والخطابي رد عليهم ببيان أن ذلك قائم في لسان العربية يقال : رفه ،ورف له، فهذه « لغتان فصيحتان: ردفته وردفت له كما تقول: نصحته ونصحت له. »

وهو هنا لا يعدو أن يكون نظره نظرًا لغويًا لا بلاغيا، هو يبين صحة ما جاء به القرآن ، وهذا مَهمة اللغوي النحويّ ، لا مهمةُ البلاغي، البلاغي لا يعنى ببيان صحة الإيراد، ولكنه يُعنى ببيان المقتضى اختيار أحد الوجهين الجائزين في هذا المقام. ولو أنه جمع بين النظر اللغوي والنحوي والنظر البلاغي لكان أوفق به لغويًا بلاغيًّا.

******

ومن هذا الباب أيضًا الاعتراض بزيدة«الباء» في قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) [الحج:٢٥]

يذهب الخطابي إلى أن هذا الحرف «الباء» :« كثيرًا ما يوجد في كلام العرب الأول الذين نزل القرآن به ، وإن كان يَعِز وجوده في كلام المتأخرين. »

هذا بيان للجواز، وأنه ساغ الإعراب به ، وإن كان ا المتأخرون من الناسِ يعز وجوده في بيانه كما يقول ، ممّا جعل المعترض يحسب أنه لما عز في لسانِ المتأخرين كان وجوده في القرآن غير قويم ، وهذا منه نظرٌ غيرعلميّ .

الصواب أن يُظر بيان القرآن في ضوء ما كان معهودًا عند العرب زمن تنزيل القرآن لا زمن النظر في القرآن ، ذلك أنّ هنالك مفارقةً بين حال البيان باللسان العربي من المبعث، وحاله من بعد ذلك بقرنين أو ثلاثة قرون

ومضى الخطابي يورد من مقالات ـهل العلم باللسان العربي الدالةِ علي أن العربية التي كانتْ زمن المبعث وقبله قد حدث فيها تغير ، ولذا لم يؤخذ عن أهل السان بعد منتصف القرن الثاني الهجري(١٥٠هـ) لما أصاب اللسان بعد من اللحن ونحوه.

---

[1] [illegible]

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

يقول الخطابي :« وأخبرني الحسن بن عبدالرحيم عن أبي خليفة عن محمد ابن سلام الجمحي قال: قال أبو عمروبن العلاء: اللسان الذي نزل به القرآن وتكلمت به العرب على عهد النبي صلى الله عليه وسلم عربية أخرى عن كلامنا هذا.

وقد زعم بعضهم أن كلام العرب كان باقيًا على نجره الأول وعلى سنخ طبعه الأقدم إلى زمان بني أمية ثم دخله الخلل فاختل منه أشياء ، ولذلك قال أبو عمروا حين أنشد قول امرىء القيس:

نطعنهم سُلكى ومخلوجَةً * كرَّكَ لأمين على نابل

ذهب من يحسن هذا الكلام.

وأخبرني أبو عمرو عن أبي الحسن العباس عمن ذكره أن أبا عمرو أنشد قول الحارث بن حلزة:

زعموا أنَّ كلَّ مَن ضَرب العَيـ ـــرَ مُوالٍ لنا وأنَّا الولاء

فقال: ذهب من يحسن هذا الكلام.

قلت : ولهذا صار العلماء لا يحتجون بشعر المحدثين ، ولا يستشهدون به كبشار بن برد ، والحسن بن هانئ ، ودعبل العتَّابي ، وأحزابهم من فصحاء الشعراء والمتقدمين في صنعة الشعر ونجره.

وإنما يرجعون في الاستشهاد إلى شعراء الجاهلية وإلى المخضرمين منهم ، وإلى الطبقة الثالثة التي أدركت المخضرمين .

وذلك لِعلمهم بما دخل الكلام في الزمان المتأخر من الخلل والاستحالة عن رسمه الأول ، فمن لم يقف على هذه الأسباب ، ثم قاس ما جمعه من تلاد الكلام الأول ، واعتبره بما وجد عليه كلام الأنشاءِ المتأخرين عَيَّ بشيْء كثير من الكلام وأنكره .

وأما من تبحر في كلام العرب ، وعرف أساليبه الواسعة ، ووقف على مذاهبه القديمة فإنه إذا ورد منها ما يخالف المعهود من لغة أهل زمانه لم يسرع إلى النكير فيه والتلحين.

أخبرنا أبو عمر عن أبي العباس قال: قال ابن الخطاب: أنحى الناس من لم يلْحَن أحدًا. (١)

---

(١) قوله : (أنحى الناس من لم يلْحَن أحدًا) قوله (أحدًا) من العام المراد الخاص أي أحدًا من أهل البيان العالي، وليس كل متكلم، ولا سيما في زماننا، وعدم التخطئة لاتساع عرفانه بمذاهب الإبانة عند العرب،لا لأن كل متكلم مصيبٌ، وإنما يكثر بالخطئة ممن ضاق علمه، بلسان العربية فيحسب ما هو صوابٌ خطأً ، وكذلك الحال في الأحكام الفقهية .

وسمعت ابن أبي هريرة يحكي عن أبي العباس بن سريج قال: سأل رجل بعض العلماء عن قول الله عزّ وجل:(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ)[البلد:١] فأخبر أنه لا يقسم ، ثم أقسم به في قوله:

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) [التين]

فقال له ابن سريج: أي الأمرين أحب إليك؛ أجيبك ثم أقطعك ، أو أقطعك ثم أجيبك؟ ([1])

قال: لا بل اقطعني ثم أجبني. فقال له:

" أعلم أنّ هذا القرآن نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحضرة رجال وبين ظَهراني قوم كانوا أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمزًا ، وعليه مطعنًا فلو كان هذا عندهم مناقضة لتعلقوا به وأسرعوا بالرد عليه ، ولكن القوم علموا وجهلت ، فلم ينكروا ما أنكرت ."([2])

ثم قال له: إن العرب قد تدخل (لا) في أثناء كلامها وتلغي معناها ، كقول الشاعر:

في بئر لا حور سرى وما شعر

يريد في بئر حور سرى وما شعر .

وأخبرني أبو عمر عن أبي العباس عن ابن الأعرابي قال: العرب تذكر (لا) وتلغيه ولا تضمر لا وتستعمله . وانشد في الأول قوله:

في بئر لاحور سرى وما شعر

وفي الأخر قول الشاعر:

أوصيك أن تحمدك الأقارب * أو يرجع المسكين وهو خائب

يريدُ : أوصِيك ألّا يَرجع المسكين خائبًا

قلت: فهذا وما أشبهه زيادات حروف في مواضع من الكلام وحذف حروف في أماكن أخر منها ، إنما جاءت على نهج لغتهم الأولى قبل أن يدخلها التغيير ، ثم صار المتأخرون إلى ترك استعمالها في كلامهم. فافهم هذا الباب ، فإنك إذا أحكمت معرفته استفدت علمًا

---

[1] قوله :أجيبك ثم أقطعك أي أرد على سؤالك الخاص أولا أم أذكر لك قاعدة عامة يدخل فيها ما سألت عنه، فاختار السائل القطع ثم الإجابة، أي اختار الإعلام بالقاعدة العامة ثم الجواب عن هذه الحالة الخاصة.

[2] هذه قاعدة كلية حصينة، ولو أن كل من اعترض على البيان القرآني بشيء من ذلك استحضرها لما اعترض.

كثيرًا وسقطت عنك مئونة عظيمة وزال عنك ريب القلب ، وتخلصت من شغب الخصم ، ولا قوة إلا بالله. » [بيان إعجاز القرآن:٤٥- ٤٧]

بيِّنٌ أن هذا كلامه مع من ينكر أن القرآن كلام الله تعالى ، وأنه جاء على معهود العرب، ولذلك سلك في كلامه هذا مسلم اللغوي النحوي الذي يعمد إلى تقريرِ عربية ما جاء به القرآنُ وأنّه جارٍ على معهودِ العربِ في الإبانة، وأن من بلسان العربِ عليمًا لا يتوقّف في مثل هذا لعلمه أنه سائغ شائع في لسان العلرب.

وهذا فيه تعريض بأن ما أسقطه في معرة الاعتراضِ جهله بلسان العربِ ، فكان حتفه فيما ادعاه.

ومن بعدِ أن قرر هذا المبدإ يقول :

« ونعود إلى الجواب عن قوله سبحانه: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ} فنقول: قد قيل إن الباء زائدة.

والمعنى: ومن يرد فيه إلحادًا بظلم ، و"الباء" قد تزاد في مواضع من الكلام ولا يتغير به المعنى.

كقولك: أخذت الشيء وأخذت به ، وكقول الشاعر:

نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

وكقول الأخر:

هن الحرائر لا ربات أحمرة * سود المهاجر لا يقرأن بالسُّوَر

يقال: قرأت البقرة ، وقرأت بالبقرة.

وقد قرأ غير واحد من القراء: {تُنْبِتُ بالدُّهْنِ} بضم التاء منهم ابن كثير وأبو عمرو ، وزعم بعضهم أن معناه تنبت الدهن

وقال بعضهم :"تنبت وفيها دهن" كما يقال: "جاء زيد بالسيف" أي جاء ومعه السيف . » (١)

هذا الذي قاله الخطابي لم يعدُ أن يكون مسلكًا لغويًا مسوغًا ما جاء بيه البيان القرآني، ومصححًا ما جاء ب÷، ولم يعرض الفرق بينمن ما جاء عليه القرآن،وما يمكن أن يأتى به خارجه.

(١) اي أن «الباء» في «بالدهن» المصاحبة . وذلك أن الباء إنما وضعت للإلزاق، وهو معنى لا يفارقها. وبين المصاحبة والإلصاق تلاحظ لا يخفى.

أما قوله:« و"الباء" قد تزاد في مواضع من الكلام ولا يتغير به المعنى إن أراد أن أصل المعنى الذي هو طلبة اللغوي والنحوي لا يتغيير بالإتيان ب،«الباء» وحذغها، فهاذ حق .

وإن أراد المعنى البياني البلاغي السياقي فلا، بل المعنى فيه ما ليس في ما حذفت منه "الباء" في الآية.

يردف الخطابي بذلك قول الله تعالى (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [الأحقاف:٣٣] قائلًا:«المعنى قادر على أن يحيي الموتى .

قالوا: وإنما تدخل "الباء" في هذا المعنى مع حرف الجحد كقوله: {أليس ذلك بقادرٍ على أن يحيي الموتى}

وقد ضارع "ألم" في معنى الجحد "أليس " فألحق بحكمه .

قالوا: ودخول "أن" إنما هو توكيد للكلام (١)

وأنشد الفراء في مثل هذا "الباء":

فلما رجعت بخائبةٍ ركابٌ * حكيم بن المسيب منتهاها

قال: فأدخل "الباء"

قال: وتقول: ما أظنك بقائم ، فإذا حذفت الباء نصبت الذي كانت فيه بما تعمل فيه من الفعل. »

هذا الذي قاله أيضًا لا يعدو أن يكون نظرًا لغويًا محضًا، لم يلفت إلى المقتضي للعدول عما هو الأصل إلى الإتيان بهذا «الباء» وذلك أنه مخاطبٌ من ينكر أن ما جاء به القرآن ليس على معهود العرب، فبين له ما جهله، بين له أن ما زعم أنه خارج عن معهود العرب إنما هو من حاق معهودهم.

وهذا الذي يزعم أن القرآن فيه ذلك ، ليتوصل أنه ليس كلمة الله تعالى، وإنما هو كلمة سيّدنا رسُول الله - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِه وسَلَّم - كان حقه أن يبني على دعواه أنه كلمة سيّدنا رسُول الله - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِه وسَلَّم – أن يعلم أنّ

---

(١) «أن» في «أن يحيي الموتى» مصدرية، فالمعنى قادر على إحياء الموتى . وفي قوله (أن يحيي) استمرار تجددي ، ليس في المصدر (إحياء) والإتيان بالاستمرار التجدديأوفق بالغرض من الإعراب باستمرار التبقي الفقد من المصدر (إحياء)

ولعل مؤاد الخطابي بقوله(ودخول "أن" إنما هو توكيد للكلام) ما في الاستمرار التجددي من توكيد.

سيِّدنا رسُول الله - صلّى اللهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم - إنما هو عربي قح، وأنه من قبيلة هي أفصح قبائل العرب لسانًا، فمقاله من أفصح المقالات، فلا وجه للإعتراض بأن في القرآن ما لم يجر على معهود العرب.

وفوق هذا لوكان الذي يزعمه من أن في القرآن ما لم يجر على معهود العرب، وأنه خارج عنه صحيحًا لكان أولى النَّاس بأن يعترض بهذا هم العرب المناوؤن الذي نزل القرآن في زمانهم ومكانهم،وبلسانهم ولكنهم لم يفعلوا مع شدة حاجتهم إلى إسقاط القرآن، وليس أشد إسقاطًا من أن يقرّروا أنّه خارج عن معهودهم في الإبانة فهامًا وفهمًا.

وسكوت العرب عن أن يأتوا بسورة مثل سورة منه دال على أن القرآن كلمة الله تعالى، وسكوتهم عن الاعتراض على أسلوب القرآن دالٌ على أنهم مؤمنون بأن القرآن جارٍ على معهودهم غير خارج عنه ، وأنّه خلاء مما يمكن أن يعترض به عَلَيْهِ .

******

الاعتراض على القرآن بأن فيه من سوء التأليف ومن نسق الكلام على ما ينبو عنه ولا يليق به من نحو تشبيه **شيْءٍ بشَيْءٍ ولم يتقدم من أول الكلام ما يشبه به ما تأخر منه.**

وذلك قوله سبحانه: { كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ)(الأنفال:٥) عقيب قوله: { أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)(الأنفال:٤) وكما (في) تشبيه شَيْءٍ بشَيْءٍ ولم يتقدم من أول الكلام ما يشبه به ما تأخر منه. وكقوله سبحانه: {وقل إني أنا النذير المبين كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين} ، وقوله تعالى: {كما أرسلنا فيكم رسولًا منكم ...} الآية.

*****

نقض الاعتراض:

هذا الاعتراض من نوع آخر غير ما سبق، هذا اعتراض ينظر في علاقات المعاني وأنسابها،وهو من أدق وألطف معالم الإعجاز في القرآن، لا يكاد يدركه إلّا ذو فراسة بيانية تتراءى له علاقات الرحم بين المعاني،ويرى معالم ائتلاف المختلفات وملامحها.

قوله تعالى (كَماأَخْرَجَكَ رَبُّكَ...) في طليعة سورة الأنفال يلفت حرف(الكاف) في (كَما أَخْرَجَكَ...) إلى أنَّ ما بعد «الكاف» مشبه به، وهنا يبحثُ العقل عن المشبه ، فينظر فلا يَرى ما يصلح في الظاهر أن يكون مشبهًا ، فيحسِب عجلة أنّ الكلام مبتور، وخلاء

من النَّسق ،والاتصال، وهذا ما سارع المعترض إلى التصايح به. وكان حرًى به، أن يسأل نفسه :

ما بال العرب الذين لم يسلموا وما بال المنافقين، وأهل الكتاب من يهود، لم يطيروا بذلك، ويشغبوا به؟ أهم من الجهالة بذلك بمكان؟

واقع الحال يقضي بأنَّهم أهلٌ لأن يبصروا ألطفَ الخلل في أيّ بيان، وهذا يقيم في قلب المعترض الشك في اعتراضه .

أو يمكن المعترض – إن كان فيه قليل من العقل أو قليل من الحياء - أن يخدَع نفسَه إنه أعلم بالبيان من الذين كانوا في زمن نزول القرآن ولم يؤمنوا به .

عدم شغبهم بمثل هذا الاعتراض،وهم في البيان بمنزل عَليّ، يسوق إليه أن هذا الذي اعترض به ليس له وجود، إنما هو وهمٌ .

وهذا يوجب البحث عن وجه الاتصال بسباقه، ولكنَّ الرغبة العارمة في الشغب لم تسق هذا المعترض إلى ما ينبغي أن يكون ؛ ليستر على نفسِه، فيظهرها في مقام الجهالة والضلالة.

الخطابيّ ينظر ، فيبدي لنا وجوهًا يحمل هليها نسق الجملة بسباقها حملًا قويًا، وكثرة الوجوه آت من تنوع جهات النظر،والمجخ إلى المعنى منأكثر من جهة،وهذا مسلك منمسالك اتساع تأويل المعنى في فؤاد المتدبر: يَا بَنِيّ لا تَدخلوا من بابٍ واحدٍ وَادخلوا مِنأبوابٍ متفرقةٍ .

يقُول الخطابي :« ففيه وجوه ذهب إليها أهل التفسير والتأويل ، كلها محتملة ، أيها اعتمدت وعلَّقت عليه «الكاف» حملها وصح الكلام عليه : قال بعضهم أن الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –أمر رسوله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبِهِ وَسَلَّمَ - أن يمضي لأمره في الغنائم على كره من أصحابه كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير وهم كارهون .

وذلك أنهم في يوم بدر اختلفوا في الأنفال ، وحاجوا النبي صلى الله عليه وسلم وجادلوه ، فكره كثير منهم ما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم في النفل ، فأنزل الله تعالى الآية ، وأنفذ أمره فيها ، وأمرهم أن يتقوا الله ، وأن يطيعوه ، ولا يعترضوا عليه فيما يفعله من شيء فيما بعد إن كانوا مؤمنين ، ووصف المؤمنين ثم قال:(كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ}

يريد أن كراهتهم لما فعلته في الغنائم ككراهتهم في الخروج معك وقد حمدوا عاقبته فليصبروا في هذا وليسلموا ويحمدوا عاقبته كذلك ([1])

وقيل معناه: أولئك هم المؤمنون حقًا كما أخرجك ربك من بيتك بالحق كقوله: {فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون}.([2])

وقيل "كما" صفة لفعل مضمر وأن تأويله: افعل في الغنائم كم فعلت في الخروج إلى بدر وإن كره القوم ذلك » ([3])

في تعدد ما يقوم مشبهًا اتساع في التأويل يفضي إلى اتّساعِ المعنى في فؤاد المتلقي من جهة، وفيه آية على وثاقة العلاقة بين المشبه به والمشبه على خلاف ما توهم المعترض وفي هذا من التعريض به حيث حسب ما كثرت روافد اتصاله من قبيل «الاقتضاب» مما يهدي إلى وهنه في تلقي البيان على ما يليقُ بِهِ.

---

[1] هذا التأويل على أن تقدير مبتدإ محذوف أي هذه الحال المتعلقة بتوزيع الأنفال كمثل حال إخراجك، في أنهم كرهوا ما كان ثم حمدوه . فهو من قبيل تشبيه حالٍ بحالٍ في أنهم كرهوا أولًا ثم تبينت الحكمة أخرًا فرضوا. وفي هذا ترضية له - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ -

[2] هذا يشير إلى أن مناط المشابهة هو الحقية، فالأمران من الحق المبين، والمشبه به الحقية فيه جلية، مناله أمر مشهود، فكذلك هي المشبه الذي هو أمر معنوي أي إن حقية إيمانهم كمثل حقية إخراج ربك له .

[3] ما قاله الخطابي هو الذي نقله الزركشي في «البرهان في علوم القرآن»(تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم ط:١ عام: ١٣٧٦ هـ - دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي . ج١ص٤٧)

ويذهب الزمخشري إلى أن في تأويل التشبيه في الآية وجهين :

« أحدهما أن يرتفع محل الكاف على أنه خبر مبتدإ محذوف تقديره: هذه الحال كحال إخراجك. يعني أنّ حالهم في كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة، مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب.

والثاني: أن ينتصب على أنه صفة مصدر الفعل المقدّر في قوله الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ أى الأنفال استقرّت لله والرسول، وثبتت مع كراهتهم ثباتا مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون. »

ويعلق الطيبيّ في حاشيته على الكشاف :" فتوح الغيب:على ذلك بقوله:« قوله: (هذه الحال كحال إخراجك): قال محيي السنة: "اختلفوا في تعلق الكاف؛ قيل: التقدير: امض لأمر الله - يعني: في الأنفال- وإن كرهوا، كما مضيت لأمر الله في الخروج من البيت لطلب العير وهم كارهون. وعن المبرد: الأنفال لله والرسول وإن كرهوا، كما أخرجك ربك بالحق وإن كرهوا".

قال السيد ابن الشجري في "الأمالي": القول بأن الكاف نعت لمصدر - كما في الوجه الثاني- ضعيف؛ لتباعد ما بينهما بعشر جمل، والوجه: الأول، وهو أن يكون خبر مبتدأ محذوف.

وقلت: بل الوجه الثاني أبلغ التئاماً من الأول، والتشبيه في أكثر تفصيلاً، لأنه حينئذ من تتمة الجملة السابقة داخل في حيز المقول مع مراعاة الالتفات، فالفاء في {فَاتَّقُوا اللَّهَ} رابطة للوصف بالحكم، جاعلة تتمة الآية من جملة حال المشبه ومرتبة عليه، فكأنه قيل: قُلِ الأنفال استقر لله مع كراهتكم، وكان خيراً لكم؛ لما حصل لكم من تقوى الله وطاعة الرسول وإصلاح ذات البين، كما استقر إخراجي من المدينة إلى القتال مع كراهتكم إياه، وكان خيراً لكم؛ لما نلتم من الفتح والغنيمة. والأول مركب عقلي لقوله: "هذه الحال كحال إخراجك"، والثاني مركب وهمي، فلابد من تصور جزئيات الكلام، لئلا يختل أمر التمثيل، بخلاف الأول، فإنه يحصل من مجرد أخذ الزبدة والخلاصة »

ومن كان كذلك فحقٌ عليه لنفسِه أولًا أن يجلس مجلس الصبي المتعلم، لا يقوم مقام المعترض المنتقد.

والأمر في ما مضى من آيةِ " الأنفال "كقوله سبحانه: { كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم} معناه: " كما أنعمنا عليكم بإرسال رسول فيكم من أنفسكم كذلك أتم نعمتي عليكم ".

(تم النظر في ما قُررتْ مدارسته من رسالة: بيان إعجاز القرآن للخطابي والحمد لله رب العالمين)